1

الأسس النظرية

obeikandl.com

obeikandl.com

ما الظروف التي يمكن أن ترى فيها فئاتٌ كبيرة من المجتمع- سواء على مستوى الأحياء أو الوطن- الآخرينَ بأنهم خطرون جدًّا وأنهم سوف يهاجمونهم بغية الإبادة؟ كيف يمكن أن يكره الناس أشخاصًا ينتمون إلى مجموعة مختلفة محددة، مع أنهم لم يلتقوا بهم من قبل، بل لم يشاهدوهم؟ لماذا نرى قيم الآخرين غريبة بل ملوثة أيضًا؟

لقد حدثت هذه المواقف في التاريخ كثيرًا، وما تزال تحدث بوضوح حتى اليوم، ولا يوجد أي سبب للاعتقاد أننا لن نواجه هذه المواقف في المستقبل. سيقدم هذا الجزء سياقًا نظريًا للإجابة عن هذه الأسئلة، وبذلك فإنه سيضع الأساس لفهم ظاهرة أخرى لم تحظَ بالاعتراف والدراسة الكافيتين بعد؛ ألا وهي ظاهرة الإبادة الثقافية.

عندما نتحدث عن الإبادة الثقافية فإننا لا نشير إلى الطبيعة العالمية لصناعة الوجبات الغذائية السريعة، أو مجانسة أنماط اللباس وفقًا للخطوط الغربية، أو الرغبة الواضحة والدائمة لملايين الناس من غير الأوروبيين في الهجرة إلى الولايات المتحدة أو الاتحاد الأوروبي؛ وإنما نحن مهتمون بالاستهداف المقصود والمدمر لثقافات المجموعات التي لا تنتمي إلينا، من أجل تدميرها أو إضعافها، من خلال عملية الاحتلال أو السيطرة، وسيبحث معظم الكتاب دراسات حالات وقائع كهذه.

كانت نزعة الإبادة الثقافية موجودة فينا منذ زمن، وما زالت حتى الآن، ومع ذلك فإن الإبادة الثقافية- خلافًا لنظيرتها المعروفة بالإبادة الجسدية الأكثر دموية- لا

تعد غير قانونية وفقًا للقانون الدولي، وهذا الكتاب محاولة لمعرفة أسباب ذلك،ولكننا سنبدأ بالقضية المهمة أولًا؛ وهي كيف تذعن المجتمعات للإبادة الثقافية للآخرين؟

للإجابة علاقة كبيرة بظاهرة سماها هذا الكاتب النزعة المحلية الطبيعية Natural localness.

النزعة المحلية الطبيعية

يقول الافتراض الحديث إننا نعيش في عصر كونيٍ، وقد اشتهر هذا الرأي كثيرًا على يد الكاتب مارشال ماكلوهان (Marshall Mcluhan) من خلال سلسلة كتب ومقالات نشرها في أوائل ستينيات القرن العشرين، قال لنا فيهامستخدمًا المجاز التشريحي في مقدمته لفهم الإعلام: إنه «بعد مرور أكثر من قرن [هكذا] على التكنولوجيا الإلكترونية، وسَّعنا جهازنا العصبي المركزي ليصبح كونيًا».

إذا ما استخدمنا لغة أقرب إلى الفهم فإن ماكلوهان McLuhan يؤكد أن العالم كله (متشابك)، وهذا ما يجعلنا جميعًا مواطني (قرية عالمية)، (قَصُر فيها زمن التواصل وتلاشت المسافات)، وهذا بدوره يسمح لنا بتبادل المعلومات في الكوكب بالطريقة ذاتها والسرعة نفسها التي نقطع بها المدن. ولا شك في أن هذه العملية التشابكية مستمرة، على الرغم من أنها لا تغطي بالتأكيد الكوكب بأكمله؛ تمثل شبكة الإنترنت العالمية حلقة متنامية لعالم من المعلومات.

على كل حال، فإن النتيجة التي وصل إليها ماكلوهان McLuhan من خلال هذه العملية المتجددة تعد مثيرة للجدل، فهناك فرق بين تكنولوجيا التواصل ومدى استخدامها وحجمه، وهناك فرق بين وجود شبكة الإنترنت والأهداف التي وضعت من أجلها من قبل غالبية مستخدميها. يبقى كل من استخدامها ومضمونها محليين في طبيعتهما؛ فعلى سبيل المثال وفقًا لدراسة حديثة أجرتها جامعة استانفورد، فإن معظم مستخدمي شبكة (الإنترنت) الأمريكيين يستخدمونها لمراسلة أصدقائهم

وللتسوق ("The Internet Study: More Detail" 2000)، وهذا يعني أن الإنترنت يقدم لهم خدمة البريد المستعجل وخدمة دليل السلع، وهذه الممارسات تشير إلى أن الاهتمام الشعبي المهيمن على أكثر التقنيات عالمية هو اهتمام إقليمي وشخصي.

وهذا يثير شكًّا جديًّا في الافتراض الذي يدّعي أن العولمة، فيما يخص الحياة اليومية للأفراد العاديين على الأقل، قد وسعت نوعيًّا الاهتمامات والآراء، وعلى الأرجح- كما هو الحال في الماضي- أن الأولوية الطبيعية لمعظم الناس اليوم هي توجيه حياتهم محليًّا، وقد ظهر الدليل الموحي بهذا التوجه من دراسة حديثة تتبعت استخدام الهواتف المحمولة لقرابة ستةِ أشهر من قبل مئة ألف شخص غير أمريكيين اختيروا عشوائيًّا، وقد كشفت الدراسة أن «حركة الإنسان على درجة عالية من الرتابة الزمانية والمكانية، بحيث إن كل فرد أصبح يتصف باستقلالية زمنية، وبعزلة مكانية، واحتمال كبير للعودة إلى قليل من الأمكنة المعتادة». ونتيجة لذلك يبدو أن السفر اليومي لمعظم الأشخاص إنما هو ضمن نصف قطر يبلغ طوله عشرين ميلًا (Gonzalez, Hidalgo&Barbasi, 2008).

وإضافة إلى ذلك ثمة حقيقة مفادها أن أكثر ما يهمنا في الحياة اليومية هو بيئتنا المباشرة؛ أي إن المعرفة المهمة بالنسبة إلينا هي تلك التي تتعلق بنا وببيئتنا، والبيئة (المحلية) لأغلبيتنا الساحقة هي مجال العمل والمعيشة، ونجد فيها عادة الدائرة العائلية المباشرة، والأصدقاء، والزملاء، وفيها أيضًا تُحلُّ مشكلاتنا اليومية، ولنتجنب الخيبة فإننا نحتاج إلى معلومات تتيح لنا التوصل إلى مستوى حل المشكلة، وهذا لا يمكن أن نجده إلا على الصعيد المحلي؛ فعلى سبيل المثال ما يهم معظمنا على الصعيد اليومي هو وضع حركة المرور على الطرق العامة، والذهاب إلى العمل والمدرسة والعودة منهما، وليس الأوقات المقدرة لوصول الطائرات وإقلاعها في مطار محلي، مع أننا حين نكون في وضع ما فقد نهتم لهذا الحدث الأخير، ولكنها بالنسبة إلى معظم الناس وقائع غير عادية.

بعيدًا عن حل المشكلة، فإننا نهتم بالقيل والقال، وفيما يجري في حيِّنا؛ لأن هذا المكان محلي ومرتبط بنا. لدى بعضنا أقارب من الدرجة الأولى، وأصدقاء حميمون في الخارج، ويتكامل مكان إقامتهم أحيانًا مع أمكنتنا بطريقة افتراضية، إلا أن ذلك أيضًا يُعد حالة استثنائية. إجمالًا فإننا بدلًا من متابعة الأحداث البعيدة، نهتم بأنباء المدينة وما يجاورها؛ كالأعراس، وما يُنشر عن المطاعم والسينما، والوفيات، والجرائم المحلية، وتنزيلات المتاجر الكبيرة، ومن ثم لم تتضاءل أولوية المحلية أمام التقدم الذي حصل في تكنولوجيا الاتصالات التي يقال إنها «تمثل نهاية الجغرافيا وموت المسافات» (Wittkopf and McCormack 1999, xi).

من الثابت أن العقل البشري «مجهز بقدرات تمكنه من السيطرة على البيئة المحلية والتفوق على المقيمين فيها» (Pinker 1997, 352). فكلنا نولي حلبتنا المحلية اهتمامًا خاصًّا؛ لأنها تزودنا بالمعرفة الضرورية لصياغة توقعات مفيدة وناجحة على الأغلب، وتأمين المؤونة، وتلافي الخطر؛ وبعبارة أخرى، فإن للتركيز على البيئة المحلية قيمة لبقاء الإنسان؛ ولهذا مكوِّنات لها علاقة بالوراثة والتنشئة؛ فهناك- من جهة- ضرورات بيولوجية شديدة التشابك تنمي فينا التوجه الجماعي، والشك في المجهول، وترقب الخطر، وهذا ينتهي على الفور في المدى المحلي الذي نقيم به. ومن جهة أخرى، فإن كيفية تعاملنا مع هذه الضرورات هي مهمة ما تعلمناه من تجاربنا الشخصية التي هي بدورها تحدث ضمن بيئة ثقافية معتمدة على نوعية المعلومات المتوافرة لدينا؛ إذ يمكننا أن نكون ضمن بيئتنا اليومية المباشرة مسؤولين عن جمع المعلومات الضرورية، ومع ذلك تغدو مسألة المعلومات ومصداقيتها، فيما وراء الأفق، مسألة إشكالية.

ليست المحلية الطبيعية مجرد ظاهرة يمر بها الأفراد، وإنما هي أيضًا ذات توجه جماعي؛ فالثقافة نموذج محدود ينبثق عن العادات والتقاليد السائدة على المسرح المحلي والإقليمي، ومنذ مطلع العصور الحديثة، التأمت المناطق المحلية والإقليمية في دول قومية تدمج العادات والتقاليد المحلية وتؤثر فيها. إن الثقافة المحلية (التي

تُكيَّف بحيث تتلاءم مع الثقافة القومية) لا تحدد السلوكات المقبولة فقط، بل تحدد كذلك معايير الأفكار ذاتها إلى حد بعيد، وهذا يعني أن الثقافة تكوِّن الحدود الإدراكية لوجهة نظر الشخص العادي. ولن يتغير شيء إذا كانت جميع النماذج الثقافية المطبقة على مفهوم الأمة مصطنعة و(وهمية)، كما قال بيندكت أندرسون (Anderson 1991, 6).

يُعدُّ نموذج الثقافة السائد فطريًّا جدًّا بالنسبة إلى أتباعه، بحيث يعمل بصورة عفوية، وعملية المحافظة على الثقافة تجعل الالتزام بها من الأولويات، (وتولد اختلافًا عما هو خارجها)، وبهذه الطريقة «تصبح الحدود جوهرية لإدراك المفاهيم والممارسات؛ كالهوية، والانتماء، والثقافة» (Sajed n.d). وهكذا، حتى في يومنا هذا في عصر السفر الدولي، وأطباق الاستقبال، والعولمة الاقتصادية، لا نزال- على ما يبدو- موجهين- أفرادًا ومجتمعات- محليًّا، ومن ثم- إن شئت- فإن (القرية العالمية) قد قُسمت بصورة كبيرة إلى كيانات متجاورة تتمركز حول الذات.

على الرغم من وجود أسباب وجيهة لكون معظمنا موجهين محليًّا، فإن للنزعة المحلية الطبيعية عيوبها، لذلك فإن استبعاد بقية العالم -(Granitsas 2005)- والتركيز على محلية المرء، تعني أن معظمنا يجهل ما يجري وراء الهضبة التالية مثلًا، ويمكن أن يعزز هذا الجهل مشاعر العزلة التي تتولد فينا، والتي تنعكس في نزعة الارتياب بالغرباء وكراهيتهم، وقد كتبت عالمة النفس المعرفي كيث أوتلي قائلة: «كان لدى أجدادنا القدماء نزعة إلى معاملة المجموعات التي لا تنتمي إليهم باحتقار، وأحيانًا بالعدوان القاتل». (Oatley 2004, 29). وحتى في بلد متعدد الأعراق مثل الولايات المتحدة تسود النزعة المحلية بين الجماعات العرقية المختلفة بحيث يتولد لدى بعضهم رهابٌ تجاه الآخرين بالتناسب مع جهل بعضهم لبعض، ويسفر هذا الوضع- من حين إلى حين- عن ثورات دورية ضد الغرباء (غير الشرعيين) (Ngai2004)؛ ففي هذه البيئة تعدُّ المعلومات الدقيقة عن نمط حياة جيراننا ونياتهم، مهمة للمحافظة على السلام بين المجموعات، ولكن مع ذلك- كما

سنرى- ما زال معظمنا لا يمتلك مثل هذه المعلومات، ومن ثم فإن نزعة المشاعر السلبية تصبح خاضعة للاستغلال من قبل وسائل الإعلام، والسياسيين، والسلطات الدينية، وآخرين.

نظرتنا إلى العالم الخارجي

كيف تكتسب الغالبية ذات الطبيعة المحلية على نظرتها إلى العالم الخارجي وسكانه؟ وصف الكاتب الأمريكي والتر ليبمان (Walter Lippman) بتبصر هذه العملية في كتابه (Public Opinion)، الذي نُشر أول مرة عام 1922م (نستخدم هنا طبعة عام 1997م)، فوصف في هذا العمل المفاهيم التي يمتلكها معظم الناس حول العالم الواقع خارج عالمهم المحلي بدلالة الصور النمطية المكتسبة بصورة غير مباشرة، ومن النقاط المهمة في مقالته النقدية هذه تأكيده أنه كلما ابتعدت نظرتنا عن الوطن، ازددنا اعتمادًا على معلومات محدودة، وغالبًا ما تكون مشوهة تأتينا من مصادر لا نعرف عنها سوى قليل، وتعزز هذه المعلومات (الصور المغروسة في أذهاننا)- كما وصفها ليبمان- التي تعطي تفاصيل أكثر لوجهات نظرنا الظاهرية للحوادث غير المحلية، وللأشخاص وتأثيرهم المحتمل في حياتنا. يصف ليبمان حالتنا فيقول: «كل واحد منا يعيش ويعمل على جزء صغير من سطح الأرض، ويتحرك ضمن دائرة صغيرة... أما أفكارنا فهي تغطي حتمًا مساحة أكبر، ومدة من الزمن أطول، وعددًا من الأشياء أكبر، وهو أكبر مما نستطيع ملاحظته مباشرة، لذلك فإنه يجب جمعها بعيدًا عما أشير إليه من قبل الآخرين، وعما يمكننا تخيله».

في أوقات التوتر الشديد التي تحيط أولئك الذين لا ينتمون إلى مجتمعنا، ندرك جهلنا بالأمور التي تقع خارج بيئتنا المحلية، ولتعويض ذلك الجهل فإننا نضع آليًّا الحالةَ ضمن سياق ثقافي محدد مسبقًا، وهذا يعدُّ نوعًا من شعور تاريخي واع توجهه عادة الصور النمطية، فنلجأ في الوقت ذاته إلى آخرين من مجموعتنا يفترض أنهم يعلمون ما يحدث في الخارج. والمصدر الأساسي الذي يعطينا هؤلاء (الخبراء)-

من موظفين حكوميين، وحكماء، وأكاديميين، وأحيانًا مسؤولين دينيين- هو وسائل الإعلام بأنواعها كافة، ومع ذلك- كما قال لنا ليبمان- « الأخبار والحقيقة ليست شيئًا واحدًا»، وأحد أسباب الاختلاف هو أن الأخبار تُصفى من خلال عقول هؤلاء (الخبراءِ الذين يملكون المعرفة)، وموجهيهم الإعلاميين. وهؤلاء الخبراء- كما يقول المنظر القانوني ريتشارد بوسنر (Richard posner)- «يمثّلون طبقة متميزة في المجتمع، تتمتع بقيم وآراء تختلف منهجيًّا عن تلك التي لدى الناس العاديين»، وهكذا، بالعودة إلى ليبمان، فإنه يمكننا الافتراض أن الإرشاد الذي يقدمه (الخبراء) يُبنى «بموجب بعض المقاييس الأساسية خارج الصور النمطية الخاصة بهم... وبموجب إلحاح مصالحهم».

بعبارة أخرى، فإن أولئك المرشدين المعتمَدين، بوصفهم سجناء الصور النمطية كأولئك الذين يستمعون إليهم، سوف تكون لديهم (صور في رؤوسهم)، والمتأثرة بمصالحهم المكتسبة، وغالبًا ما تتكوَّن هذه المصالح بفضل انتماءاتهم الأيديولوجية والدينية والسياسية الشخصية، وأيضًا بفضل المنافذ الإعلامية التي تساعدهم على نشر رسالتهم، وهذا يقودهم حتمًا إلى تقديم صور متحيزة أو (متماثلة) للأحداث، ولا فرق بين كون بعضهم أو معظمهم يؤمنون حقًّا بأن مواقفهم تعكس الحقيقة؛ فهم منخرطون- عن وعي منهم أو غير وعي- بمهمة نمذجة العالم غير المحلي.

يتلاءم هذا السيناريو بدقة مع الموقف الذي اتخذه كل من نعوم تشومسكي (Noam Chomsky) وإدوارد هيرمان (Edward Herman) في كتابهما **صناعة الإجماع** (Manufacturing Consent)، الذي طرحا فيه مسألة (نموذج دعاية) لوصف وسائل الإعلام التي (تصفّي) الأخبار، وتعتمد على «المعلومات التي تزودها بها الحكومة، ورجال الأعمال، والخبراء الممولون والمعتمدون من قبل هذه المصادر، ومن قبل ممثلي السلطة». إن مثل هذه الحالات- في رأي جانيس تيري (Janice J. Terry)- هي التي تسفر عن (إجماع في الرأي) على جميع القضايا تقريبًا، من ضمنها تلك التي لها علاقة بالغرباء، بالإضافة إلى ميل وسائل الإعلام إلى تناول الأخبار بطريقة

(ميَّالة إلى دعم النخبة القوية المتمترسة). إن مثل هذه الحقائق القاسية للصحافة الأمريكية الحديثة، كما قال وليام ريفرز بيت (William Rivers Pitt)، تجعل من القول المأثور (على المشتري أن يكون حذرًا) مُطبقًا على الأخبار.

استغلال العواطف الثابتة

إن الخطر الحقيقي والجاد في عملية المطابقة والتوافق هذه هو أنها يمكن أن تستغل العواطف الثابتة، مع نتائج أكثر تدميرية؛ فعلى الرغم من أننا- نحن البشر- نفتخر بكوننا ذوي (إرادة حرة)، فإننا في الحقيقة ناقلون لمجموعة من العواطف التي تكوَّنت خلال الأجيال. ووفقًا لعالمة النفس المعرفي كيت أوتلي، فإن إحدى نتائج هذه الحقيقة الأزلية هي أنه «يمكن للعواطف أن تقود الأفكار... بطريقة لاإرادية»، و«أن تكون حافزًا» للسلوك. ووفق أوتلي، يُعبَّر عن مصفوفة النزعات ذات الجذور الوراثية التي تؤثر بقوة في السلوك اليومي بثلاث فئات مُنظمة ثقافيًّا؛ الفئة الأولى هي الحزم التوكيدي الذي يعكس السعي إلى منصب وسلطة، ويدفعها إلى الانحياز الفطري لأولئك الذين يتشاركون في الاهتمامات ذاتها، وإذا ما شك أحد بقوة هذه العواطف، فيمكنه التفكير في أن موضوع الصراع الناجم عن مثل هذه المساعي تاريخيًّا يعدُّ ثاني أكبر مواضيع الأدبيات الإنسانية. الفئة الثانية هي الارتباط بالآخرين، التي تعكس التمسك بالأمن في مواجهة الخطر، وقد تتشابك هذه الفئة مع الفئة الثالثة؛ وهي الانتماء، التي تعكس التمسك بالحب، والصداقة، والتعاون. تاريخيًّا، فإن الموضوع التاريخي الأكثر شيوعًا في الأدبيات الإنسانية هو الحب.

يأتي دور مسألة المطابقة والتوافق في هذا السياق من خلال الحقيقة التي مفادها أن العواطف التي تعكس هذه الحاجات، والغرائز البدائية، يمكن تسخيرها إراديًّا من خلال استخدام (المثيرات العاطفية)، أو أساليب الكلام والسلوك التي تخلق (أنظمة عاطفية) أو، وغالبًا ما تساعد الانفعالات على تعزيز حب المرء لجماعته، سواء كانت عرقية، أو دينية، أو قومية، وتعزز كذلك (الاحتقار والكره) الذي يشعر به

المرء تجاه أعدائه. تتبنى أوتلي وجهة النظر التي ترى أن الانفعالات ما زالت تستخدم في أمريكا حتى اليوم لتحث على معاداة (الإرهاب) من دون الرجوع إلى التحليل أو الفحص الدقيق لسياق الأمور، بل إن القوانين أحيانًا يمكن أن تأخذ على عاتقها صفة العواطف المشفَّرة. ولا ريب أنه لا يوجد سبب لعدم إمكانية استخدام الانفعالات لتعزيز الصداقة والتعاون الكونيين، اللذين يقال إن المسيح (عليه السلام) حاول نشرهما، ولكن لا يبدو أن هذا يحدث حتى بين المسيحيين.

إن الربط بين العواطف والتطابق في الرأي يجعل الخطوة اللاحقة أسهل؛ فإذا ما طُبِّقت هذه العملية على الأحداث التي تقع بعيدًا عن الجزء الصغير من سطح الأرض الذي يقيم فيه المرء باستمرارية، من خلال طيف وسائل الإعلام، وخلال وقت طويل كافٍ، فإنها ستُنتج عمومًا صورًا متشابهة في أذهان الناس على مستوى المناطق والأقاليم وحتى الوطن. وينتج من ذلك (الفكر الجماعي thought collective)، وقد اُستخدم هذا المصطلح بداية من قبل لودفيك فليك (Ludwick Fleck) لوصف الطريقة الجماعية المقررة اجتماعيًّا للبحث العلمي، ولكنها طُبِّقت على نطاق أوسع من ذلك بكثير. إن هذه التوافقات الفكرية هي وجهات نظر مصطنعة سائدة عبر المجتمع، ومن أكثر الأمثلة شيوعًا عليها هو الدولة القومية نفسها؛ تلك الظاهرة الكونية التي دعاها أندرسون (تخيلات الأخوة... المذهلة) (Anderson 1991, 203).

تكتسب الأنماط الجماعية الفكرية قوة إضافية من حقيقة أن معظم الناس يكوِّنون آراءهم بما يتوافق مع من حولهم. ويرغب الناس بالتوافق مع المجتمع، ومشاركة وجهات النظر التي تعد مظهرًا مهمًّا لهذا الالتزام، وحالما توضع وجهة النظر موضع التنفيذ والممارسة، يتولد ميل فطري إلى تعزيزها من خلال البحث عن المعلومات التي تدعمها وتتجاهل أو تقلل من قيمة تلك التي لا تدعمها. وبالنتيجة فإن الحكومة ووسائل الإعلام التي تدير هذه الأنماط يمكن أن تحرك الجماهير على أساس افتراضات مغروسة بقوة، تعتمد- بدورها- غالبًا على الافتراضات

الراسخة التي تقوم على الأنماط، والكلمات المهمة في نظر الناس، والتأكيدات غير الخاضعة للتحليل.

إذا ما استفادت هذه الافتراضات المغروسة من العصبية الثقافية، يمكن أن يتعاظم التأثير كثيرًا.

إدراك الأخطار

لقد أُدرك الخطر الناجم عن حالات كهذه منذ زمن طويل. عندما حاول رينيه ديكارت (Rene Descartes) أن يستخدم العقل لاكتشاف ما الذي يمكن أن نقول عنه بثقة إنه حقيقة، كان يبرد، جزئيًّا، على حقيقة أن «عديدًا من الأمور، المتطرفة والسخيفة في نظرنا، لا تزال مقبولة ومعتمدة بالإجماع» (Descartes 2008,15). ويشير إيرنست غيلنر، عند بحث نتائج موقف ديكارت، إلى أن الشباب في المجتمع هم الأكثر عرضة لخطر الحماقة الثقافية؛ ففئة الشباب هي الفئة التي يجري تلقينها المعاني المألوفة. وقد لاحظ غيلنر- بحزن- أن «الطفولة، والشباب، والنضج، كلها تعد خطيئة إفساد أصيلة... إنهم يعرضوننا لأعراف وتقاليد في زمن لا نكون فيه مجهزين لمقاومتها، لأننا بسبب عدم نضجنا لا نعلم ما هو أفضل مما يثقفوننا به، فيخترقوننا بسهولة» (Ernest Gellner, 1992, 4). وهذه ليست مجرد مشكلة فردية؛ بل هي مشكلة مجتمع.

يعبِّر غيلنر عن حسرته في أثناء متابعته لتأملاته حول نزعة ديكارت الارتيابية حول العادات والتقاليد قائلًا: «إن ما يقلِق ليس كوني عُرضةً للخطأ، ولكن ما يُقلق هو أن الافتراضات المشتركة في المجتمع كله، والراسخة في أسلوب حياته، موجهة توجيهًا غير صحيح بصورة معمقة». إن الترابط المتغير للمجتمعات المحلية، والإقليمية، والقومية، لا يكبح الخطأ الجماعي مطلقًا، إضافة إلى حقيقة أن الاتفاق الفكري الجماعي يجعل من الصعب التخلص من (الافتراضات المشتركة). إذا كان هناك أي دليل في التاريخ على أن العلاقات بين الجماعات ذات وظيفة إرشادية فسيكون كل

من ديكارت وغيلنر على صواب. يتابع غيلنر متسائلًا: «إذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكننا أن نثق بمعتقدنا الجماعي؟ نعلم أن الغرباء حمقى، فهل نحن مُستَثنون من الحماقة؟» (Ernest Gellner, 1992, 2)، الجواب بالتأكيد: لا.

وهكذا، وجد ديكارت- كما قال إيرنست غيلنر- أن «الثقافة والعقل متناقضين»؛ فالثقافة موضع شك، أما العقل فلا، وقد كتب ديكارت: «يجب أن ينقِّيَ الشك والعقل معًا أذهاننا». وإضافة إلى ذلك فقد رأى ديكارت أن أي فرد عاقل يمكنه أن يتخلص من تأثير ثقافته/ثقافتها باستخدام الاستنتاج المستقل، ويوضح غيلنر ذلك بالقول: إن «عقلانية ديكارت هي أيضًا فردية بعمق، لقد ادعى ديكارت أن المرء يمكنه أن ينشئ عالمًا على أسس ليست عقلانية فحسب بل أيضًا خاصة به كليًّا» (Ernest Gellner, 1992, 2– 3)، ولسوء الحظ أن ديكارت يعدُّ متفائلًا جدًّا، كما يوحي مثال غيلنر المتعلق بالشباب السريع التأثر. وإذا كان ادعاؤه صحيحًا، فإن الفكر الجماعي التوافقي لن يكون هو المشكلة، وفي الحقيقة فإن المواطن العادي غير قادر على ما يعرضه ديكارت، وللفطرية المحلية صلة كبيرة بتلك الحقيقة.

عُرض هذا العجز في البحثِ الحديثِ حول التفكير الناقد، وقد اطَّلع أستاذ علم النفس في جامعة فيرجينيا دانييل ويلنغهام (Daniel T–Willingham) على معظم هذا البحث، وخَلُص إلى نتيجة تقول إن التفكير الناقد ليس مهارة يمكن تعليمها مثل (ركوب الدراجة)، وبيَّن أن «عمليات التفكير متداخلة مع مضمون الفكر»؛ أي إنها متداخلة مع ما يسمى مجال المعرفة، «وهكذا إذا ما ذكرت طالبًا بأن ينظر إلى مسألة ما من خلال وجهات نظر متعددة كافية، فإنه سيتعلم أن عليه فعل ذلك، ولكنه إذا لم يكن يعلم كثيرًا عن المسألة، فلن يستطيع التفكير فيها من خلال وجهات نظر متعددة».

ما نتائج الحقيقة التي مفادها أن التفكير الناقد يعتمد على مجال المعرفة؟ إحدى النتائج هي وجوب الحصول على «ما يكفي من معرفة المضمون» لنستطيع أن نصدر أحكامًا ناقدة، ولكن المجال الملائم، أو معرفة المضمون المتعلقة بالأحداث

obeikandl.com

غير المحلية، هي التي يفتقر إليها شعبنا. ببساطة فإن المعرفة السطحية، كالتي نتلقاها من (التسجيلات الصوتية، أو القصص الموجودة وحيدة الجانب)، لا توفر معلومات كافية، وموضوعية نسبيًّا، ذات صلة بالخلفية الثقافية. فعندما يُقال لنا إن خطرًا يواجهنا من مصدر خارجي، أو عندما يأتي أحدهم بالفعل ويعتدي على حياتنا، فإن المعرفة التي نحصل عليها من وسائل إعلامنا وخبرائنا غالبًا ما تكون غير كافية لإصدار حكم ناقد، وحتى لو حدث ذلك لنا فعلًا فإن مثل هذا الحكم يعد مطلبًا؛ فلنأخذ- مثلًا- المعلومات المتوافرة لدى الأمريكي العادي عن بلدان مثل العراق وأفغانستان؛ إذا كان كل ما تعلمُه عن هذه البلدان هو ما عرضه لك الناطقون باسم الحكومة بناء على هجمات 11 سبتمبر، أو على ما تفعله (القاعدة) ضد الشعب العراقي، أو ما يروج له المبشرون المسيحيون المتطرفون بناء على ما يعممونه عن الدين الإسلامي كله، أو من الوسائل الإعلامية القومية التي لم تعد قادرة على إصدار تقارير استقصائية مستقلة، فكيف يمكن أن تفكر تفكيرًا ناقدًا فيما يقال لك؟ كيف يمكنك حتى أن تخلص إلى النتيجة القائلة إن هناك حاجة إلى التفكير مليًّا في وجهات نظر بديلة؟

ضمن الأحوال العادية معظم الأمريكيين غير مبالين لما يحدث في الشرق الأوسط، ولن يضيعوا وقتًا، ولن يبذلوا جهدًا، لاستكشاف المنطقة وعلاقاتها التاريخية بالولايات المتحدة، وسيعدُّون- ببساطة- تصريحات المتحدثين باسم الحكومة، ووسائل الإعلام، إلى جانب دوافعهم المضمرة، صحيحةً ومقنعة، وبعدها سيزداد خطر وقوعهم في رهاب الإسلام المتطرف.

لقد وصف عالم الاجتماع أرجان أبادوراي (Arjan Appadurai) المشاعر الناتجة بأنها (علوم الأمراض الحادة) (المغروسة) بالإيديولوجيات القومية المقدسة، وبعبارة أخرى فإن الأوضاع ذاتها التي تدعم الحياة الاجتماعية المحلية، والمجتمع القومي، تصبح بمقتضى الأوضاع الصحيحة، هي الأوضاع التي تعزز الصراع بين المجتمعات. في الوقت الراهن، يشعر أبادوراي أن العولمة زادت من حدة هذه الحالة؛

لأن العولمة خلقت أوضاعًا لم نعد بموجبها نتحارب من أجل الأرض والثروات فقط، بل نتحارب لأننا- على نحو متزايد- نتعلم من قبل الحكومة ووسائل الإعلام أن العالم لم يعد كبيرًا بما يكفي للحفاظ على أساليب الحياة المتنافسة، ويمكن لذلك أن يحدث فقط إذا كنا مرتبطين برسوخ بالمحلية المقدسة.

اعترض باحثون على هذه الحالة؛ من أمثال جون مولر (John Muller)، ووورن ستروبل (Warren Strobel)، اللذين أنكرا ما يسمى بأثر محطة سي.إن.إن (CNN effect)، وهو الادعاء بأن التلفاز والصور الموجودة في كل بيت أمريكي يمكن أن «تصنع المزاج السياسي والرأي العام» (Muller, 1999, 55). وبالإشارة إلى الحرب الطائفية التي جلبت الرعب للبوسنة في التسعينيات، فقد لاحظا أن التغطية الإعلامية لم تُظهر أي مطلب شعبي للتدخل الأمريكي، ولكن ذلك كله يُبلِّغنا بأن وسائل الإعلام والحكومة لم تصف البوسنة على أنها قضية تهم مستمعي البيئة المحلية، ومن جهة أخرى، فقد أُظهِر العراق بالطريقة ذاتها تمامًا.

إذا طرحت المعلومات حول الوضع الخارجي، أو حول أي مجموعة خارجية، بطريقة متناسقة ومنظمة، حيث تتضافر وسائل الإعلام، و(المثقفون)، و(الخبراء) في الحكومة، لخلق قضية مُلحة يظهر ارتباطها بحياة الجماهير، فإنهم يستطيعون السيطرة على عواطف غالبية الجماهير، ويمكن أن تخلق هذه المعالجة للبيئة الإعلامية الخوف والقلق الضروريين لدفع الجماهير لمساندة السياسات الموجهة.

لذلك فإن سبل الرؤية التي أنتجتها الجماعات الفكرية تُقيد المعرفة السائدة، وتضيق مجال الخطابات الناقدة، وذلك يثير أسئلة خطيرة حول النتائج التي توصل إليها الباحثون من أمثال بروس بيركوتيز (Bruce Berkowitz) وجيمس سورويكي (JamesSurowiecki)؛ فقد أسسا الادعاء القائل بأن الأمريكيين «يعزفون عن قبول الحكمة من الشخصيات البارزة في السلطة» (Berkowitz, 1999, 207). يقول سورويكي في كتابة المعنون **حكمة الجماهير** (The Wisdom of Crowds): إنه «حتى لو لم يكن معظم الموجودين ضمن مجموعة ما مثقفين أو عقلانيين، فإن المجموعة

لا تزال قادرة- جماعيًّا- على الوصول إلى قرار حكيم» (Surowiecki,2005, xiii). إحصائيًّا من الممكن أن يحدث هذا مرات قليلة في بيئة غير مشحونة عاطفيًّا، ولكنه من المستبعد في أغلب الأحيان أن يتخذ الفرد القرار الحكيم؛ ذلك لأن القرارات الحكيمة التي يمكن التوصل إليها، بغير الطرائق العشوائية، تتطلب مستوًى محددًا من المعرفة السائدة. ويمكن أن يتساءل المرء بمنطقية: كيف يمكن أن تمارس مجموعة أحكامًا نقدية إذا كان معظم المنتمين إليها غير مثقفين أو حتى منطقيين؟ ومن المرجح أكثر، خصوصًا في تلك الحالات التي يُعرض الموقف على أنه خطر ذو صلة بالبيئة المحلية، أن تكون نماذج الاستجابة هي النماذج البافلوفية (Pavlovian) القائمة على عادات الجماعة المكيفة بالإعلام.

تبدو هذه النتيجة متلائمة مع بحث حول كيفية إيجاد العقل للمعرفة، وعلى حد تعبير ستيفن بينكر (Steven Binker)، فإن العقل يستخدم الفئات لأنها تتيح لنا إيجاد دلائل حول المواضيع المحددة في تلك المسألة. لسنا بحاجة إلى معرفة كثير من التفاصيل حول موضوع نفكر فيه ونعلم جيدًا أنه سيكون لدينا رد فعل عليه، وكل ما علينا فعله هو معرفة ما يكفي لإدخاله في فئة، ومن ثم استنتاج ما تبقى من الصفات العامة للمجموعة المختارة (Binker, 1997, 307). ومن أين نحصل على قليل من التفاصيل التي تتيح لنا أن نظن أن لدينا ما يكفي للتفاعل؟ يأتي ذلك من وسائل الإعلام، والحكومة، (والخبراء التابعين لها)، ويبدو بوضوح أن هذه العملية تيسِّر عملية الصورة النمطية.

في أوقات الأزمات يجد أغلب الناس الملتزمين بوجهات النظر العالمية، والعواطف التي يستنبطونها، أنه من المستحيل التفكير بصورة مستقلة في المواضيع التي يختزنون معرفة قليلة عنها، ولكنهم يحسون بها عن طريق الإعلام. ويتصف الفكر الجماعي- الآن بمعنى من المعاني- بخصائص الدائرة العائلية، وقد أصبحت المحافظة على التماسك ضمن العائلة في وجه الأخطار الخارجية شأنًا عائليًّا. وبالنسبة إلى الأقلية

الارتيابية التي تساورها الشكوك، والتي نجت من عملية التناقض هذه، فإنها تميل إلى الصمت في وجه الضغط الاجتماعي.

عادة ما يشمل المعتقد الجماعي الناتج القيادةَ السياسية والنخبة الاجتماعية، بالإضافة إلى المواطنين العاديين؛ أي إن زعماء الحكومات عادة يؤمنون بدعايتهم، والخلاصة أن النخبة تُخضَع لعملية التبادل الثقافي ذاتها، وللتفاعل الجماعي كالآخرين، ولذلك- على حد تعبير ميشيل هانت (Michael H. Hunt)- «يقعون في شراك الأيديولوجيا» التي تُتم النماذج الثقافية والسياسية لمجتمعهم (Hunt, 1987, 2). بالإضافة إلى أن تقبلهم غير الناقد للنظرة العالمية التي يتبناها مجتمعهم، يقودهم لحماية أنفسهم من الانشقاق. يكشف إرفينغ جانيس (Irving L. Janis) في كتابه **ضحايا التفكير الجماعي** (Victims of Groupthink) أن نخبة الحكومة السياسية يُحدثون حلقات من أجل تعزيز «الصيغ الإيديولوجية العفوية التي يعتمد عليها عمومًا صانعو القرار، مثلهم مثل الآخرين الذين يشاركونهم أهدافهم القومية، من أجل الحفاظ على الثقة بالنفس، والتفوق المعرفي على تعقيدات السياسة الدولية» (Janis, 1972, 38). وقد كان ليبمان على صواب؛ إذ إن الزعماء القوميين ليسوا أكثر تحررًا من الجماهير من الصور النمطية للعالم، وذلك على الرغم من أن لديهم مصادر معلومات أوسع من المألوف، ولما كان هذا هو الحال فإنهم سيجعلون من اهتماماتهم الرئيسة تأكيد المواقف ووجهات النظر التي تعزز التماسك الجماعي؛ من أجل دعم ما أسماه إيرل رافينال «فئاتنا الإستراتيجية الأساسية؛ الأساس الفكري العميق المتأصل في نظام صناعة القرار لدينا» (Ravenal 1978, 51). سيُنقَّى ويسقَط كلُّ ما هو غير مرغوب من المعلومات ووجهات النظر التي تتحدى الافتراضات الثابتة، ووحدة المجموعة، في مواجهة المحنة الحقيقية أو الوهمية.

في النهاية، يجب على كل فرد تقريبًا أن يشارك، أو أن يندمج على الأقل، في مسار الجدال الذي تراه المؤسسة مقبولًا، وبهذه الطريقة لا يتحقق التماسك الجماعي المحلي فقط، بل أيضًا الوحدة القومية والإقليمية، ومن ثم فلا داعي لأن يتجذر

السلوك الجماعي في بعض المواقف التآمرية الموجودة خارج المعتقد الجماعي. فيما يخص كل شخص بدءًا من القيادة القومية مرورًا بكبار رجال وسائل الإعلام، ومستهلكي الأخبار، وانتهاء بالناخبين؛ كلهم يقعون في الجانب الداخلي للبيئة الإعلامية السائدة.

الخاتمة

النزعة المحلية الطبيعية تشبه العملة ذات الوجهين، كما يقول المثل، فعلى الوجه الأول نُقشت الشروط التي تيسر أمور المجتمع، وقد قال المربي شيلدون بيرمان (Sheldon Berman) في كتابه **الوعي الاجتماعي للأطفال وتطور المسؤولية الاجتماعية** (Children’s Social Consciousness and the Development of Social Responsibility): إن «الهوية والإيديولوجيا [تقاليد المجتمع] هما وجهان للعملة ذاتها»، وخلافًا لرأي غيلنر، يتابع القول: «إن التطابق مع الإيديولوجيا يساعد على تحديد... شيء يستطيع المرء الالتزام به... لدينا حاجة إنسانية متأصلة لتنظيم واقعنا الاجتماعي والشخصي ضمن وحدة متكاملة أكبر يمكنها أن تجعل لنا معنى، وتحدد لنا اتجاهاتنا» (Berman, 1997, 63). إن الحاجة الإنسانية إلى تحديد الهوية واكتساب معنى استخدام العادات والتقاليد، غالبًا ما تتحقق من خلال تربية ذات جذور محلية، وقد نُشرت الجوانب الإيجابية لهذا النوع من النزعة المحلية على نحو جذاب في مقالات ويندل بيري (Wendell Berry,1999).

على كل حال، ومع مرور الوقت، أدخل المجتمع المحلي نفسه في كيانات إقليمية وقومية أكبر، ولكن ذلك يحدث لأن هذه الكيانات قد استوعبت بنجاح البيئة المحلية وتقاليدها. وفي الحقيقة إن النزعة الفطرية المحلية، وأساليبها التقليدية، هي جزء مهم وضروري من الوجود الإنساني المستقر، والثقافة التي ينتجونها هي «ما يجعل المجموعة ملتصقة بعضها ببعض» (Ater 1998).

ولأنها تعدُّ أساسًا لهوية المجموعة، فإن النزعة المحلية يجب أن تكون حالة متماسكة. لذلك، فإن الوجه الآخر للعملة، وهو المحلية الفطرية، مليءٌ بالمزالق المحتملة، وعلى هذا الجانب نجد النتائج العديدة لعقليتنا المتوارثة ذاتية المرجعية. وتسفر هذه النتائج عن مدى من الرؤية لما يجري خارج البيئة المحلية والمجتمعية التي بدأت من اللامبالاة المنتشرة بين المجموعات (أي الافتقار إلى التعاطف مع معاناة من هم خارج المجموعة)، وصولًا إلى خلاف خطر بين المجموعات، حيث تنطلق مشاعر الخوف والكراهية.

نتيجة لذلك، فقد حفل التاريخ بالصراعات بين المجموعات، فمنذ عام 1945م وبنهاية الحرب العالمية الثانية، خاض العالم 104 صراعات كبرى على الأقل، يمكن تسميتها بالحروب، أي بمعدل أكثر من حربين في كل عام، ناجمة عن الاحتدام الدولي الذي انتهى باستخدام الأسلحة الذرية. والغريب فيما يخص عديدًا من هذه الصراعات المعاصرة هو أن البيئات الإعلامية، والانفعالات، والمعتقد الجماعي، دفعت هذه الصراعات إلى ما هو أكثر من مجرد شيطنة العدو؛ لقد بالغوا في شيطنة الحضارات والثقافات كلها. يقول صموئيل هنتينغتون (Samuel Huntington) في كتابه الذي أسيء فهمه على نطاق واسع **صراع الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي** (The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order) إن هذه الجهود عقيمة، وإنه «لا مناص من عالم متعدد الثقافات؛ لأن الإمبراطورية العالمية هي أمر مستحيل... إذ يتطلب الأمن العالمي تعددية ثقافية عالمية» (Huntington, 1996, 318)، بيد أن خبراء وسائل الإعلام في العالم، والبيئات الإعلامية التي تقودها الإيديولوجية، يحثوننا على اتخاذ نهج مختلف؛ نهج يجعل من الرابط الذي يبقي المجموعات متماسكة باعثًا على الحرب والإبادة.

لقد وُضعت الافتراضات النظرية التي عُرضت في هذا الفصل الافتتاحي لتساعد على شرح سبب اتخاذنا لهذا المنهج مرارًا وتكرارًا في عالمنا الحديث؛ أي كيف تصبح ظاهرة الحرب، والإبادة، والمجازر بين الجماعات، والسيطرة الاستعمارية، وكل تلك

الأهوال، أمرًا ممكنًا. ضمن هذا التفسير تعبِّر العواطف الراسخة- التي شرحتها أوتلي- عن نفسها لدى الأغلبية العظمى، ضمن جو من النزعة الفطرية المحلية، وتحدد النزعة المحلية بدورها ما وصفه ويلنغهام بأنه معرفة سائدة، وهذا يعني أنها تحد من مجال المعرفة اللازمة للتفكير الناقد في الحالات البعيدة عن محيطنا المحلي. وبسبب ذلك علينا الاعتماد على الآخرين، وعلى ما يسمى بالخبراء الذين قدمتهم لنا وسائل الإعلام، والحكومة، والمصادر العامة الأخرى، لسد فراغ الجهل لدينا. وقد تعلمنا أن نتقبل هذه المصادر على أنها موثوقة ونعتمد عليها، ولكننا في الحقيقة لا نملك طريقة لاختبار صدق معلوماتهم. والواقع أن هذه المصادر- كما يؤكد ليبمان- يكون لها عادة برامجها الخاصة، ولذلك فهم ينمِّطون العالم البعيد عن بيئتنا المحلية من خلال التلاعب بالأخبار. ونتيجة لذلك، يمكن للمجتمعات جميعها أن ترى الناس والمجموعات الأخرى عمومًا، وخاصة أولئك الذين ليس لديهم معرفة محلية، بالطريقة المزيفة ذاتها. هذه النتيجة هي المعتقد الجماعي، الذي يصبح لاحقًا الوسيلة التي تحرك المجتمعات للعمل معًا ضد الأعداء المزعومين.

سيبحث هذا الكتاب أحد الاحتمالات السلبية الخاصة للنزعة المحلية: وهي الإبادة الثقافية، وهي تعني- كما استُخدمت في هذا الكتاب- أن يعمد مجتمعٌ ما، قاصدًا، إلى إضعاف وتدمير القيم والممارسات الثقافية العائدة لمجموعات لا تنتمي إليه. ويمكن أن يكون هدف الإبادة الثقافية هو إضعاف مجموعة العدو، أو يكون إهلاكًا حاسمًا لثقافة العدو بصفة ذلك جزءًا من برنامج نسف المقاومة الفاعلة للاحتلال والسيطرة. ويمكن أن يفكر المرء في هذا الأسلوب كالآتي: إذا كانت النزعة المحلية نقطة بداية لتحديد هوية المجموعة والترابط الثقافي، فإن سعي المجموعات القوية إلى مهاجمة الخائفين ممن لا ينتمون إليهم يمكن أن ينظر إليه بوصفه محاولة منطقية لتدمير أسس النزعة لدى هؤلاء الأعداء على أنها أمر منطقي، ومن ثم يبدو تدمير أساس الشخصية والثقافة، ما عدا الإبادة الجماعية، تكتيكًا مستدامًا.

وهنا ربما يتساءل الفرد: لماذا ترغب الجماعة التوسعية والعدوانية المعاصرة والمنظمة في دولة قومية، والمدعومة بالتعصب، أن تتجشم عناء الإبادة الثقافية؟ لماذا لا تستمر فقط بالممارسات الإمبريالية والاستعمارية القديمة للإبادة الجماعية؟ يمكن أن يكون الجواب- بحسب الغرب المعاصر على الأقل-: لأن ما يُعرف بالهولوكوست[1] لا يزال تعدُّ صدمة لنظام القوى الغربية وتمنعهم، والثقافات الأخرى التي تسعى إلى الانتماء للغرب، من ممارسة أو قبول الإبادة الجسدية.

لقد ظهر إدراك الغرب للخطر الموجود فعلًا، المتمثل في الإبادة الجماعية الجسدية، بعد الحرب العالمية الثانية فقط بعد الهولوكوست. فلماذا أمضى الغرب وقتًا طويلًا ليتبيَّن أن هذه الممارسات خطر واضح عليه هو نفسه؟ من الممكن أن يكون السبب هو معسكرات الموت في الحرب العالمية الثانية، حيث تحولت تكنولوجيا الحداثة التي ميزت الحضارة الأوروبية إلى القتل الجماعي للمجموعات الثانوية من الأوروبيين أنفسهم، وقد كانت هذه المعسكرات صدمة قوية جدًّا لا يمكن تسويغها، وبخاصة الصور التي عرضتها الأفلام الإخبارية حول معسكرات الاعتقال، التي

---

1. الهولوكوست مصطلح يطلق على ما يُزعم أنه الإبادة الجماعية لليهود في أيام الحكم النازي، وتزعم الأوساط الصهيونية أن خمسة ملايين يهودي قضوا في هذه المذبحة المزعومة، وهو رقم مبالغ فيه بكل المقاييس، ويشكك باحثون كثيرون، ومنهم باحثون يهود، في حدوث مثل هذه الإبادة. أما الباحث الأمريكي آرثر بتز فيقول في كتابه **كذبة القرن العشرين** The Hoax of the 2oth Century: إن هذه الإبادة لم تحدث أصلًا، وإن النازيين كانوا مضطرين لحرق الجثث بعد انتشار مرض التيفوس في أثناء الحرب العالمية الثانية؛ حيث عجزت السلطات الألمانية عن ذلك فاضطرت إلى حرقها، واستغلت الحركة الصهيونية ذلك لإخافة يهود أوروبا وجعلهم يهربون إلى فلسطين، وقد نجحت الصهيونية العالمية في ترويج هذه الكذبة، ونجحت أيضًا في استصدار قرار دولي يجرم كل من ينكر حدوثها، وصودرت جميع الكتب التي تشكك فيها. وقد حكمت محكمة ألمانية في 2 سبتمبر 2016م بالسجن ثمانية أشهر على امرأة (87 عامًا) تنكر الهولوكوست (المحرقة)، ويلقبها الإعلام الألماني بـ«الجدة النازية»، بعد أن أدانتها بالتحريض على الشغب.
وكانت المرأة قد مثلت أمام القضاء في ديتمولد في ألمانيا بناء على اتهامات بالتحريض على الشغب، بعدما زعمت في خطاب أن معسكر الاعتقال «أوشفيتز» لم يستخدم قط في الإبادة الجماعية لليهود.
جدير بالذكر أن أي شخص في ألمانيا ينكر أو يقلل علانية من القتل الجماعي لليهود خلال الرايخ الثالث، يواجه عقوبة قصوى بالسجن خمس سنوات، وعقوبة أدنى بتوقيع غرامة مالية عليه. المراجع.

كانت تُعرض في الغرب مرارًا وعلى نطاق واسع. وبعبارة أخرى، ما دام أن ضحايا الإبادة الجسدية من غير الأوروبيين، فمن الممكن تسويغ الموقف، أو تجاهله، ضمن معتقد جماعي مشوَّه يؤكد الضرورة الاقتصادية والتوسع الاستعماري لحدود الحضارة. ومع ذلك جلب النازيون، بحلول الثلاثينيات من القرن الماضي، النمطية العرقية والتحيز العنصري الذي أعاد المجزرة الاستعمارية إلى أوروبا. مع ابتداع نظرية العرق الآري الحديثة، وتحديد مجال نشاطها في أوروبا ذاتها، رأى النازيون أنه ليس العالم غير الغربي فحسب، بل أوروبا أيضًا، مأهولٌ بشعوب متخلفة لا بد من استضعافها، أو استعبادها، أو قتلها، من أجل مصلحة الشعب المتفوق المتغطرس، ورأيه الأيديولوجي المتعالي الذي أنتجه محليًّا. ووفقًا لهذا النظام الجديد يجب إبادة اليهود، واستعباد الروس والبولنديين. وماذا عن الأوروبيين الغربيين مثل الفرنسيين؟ حسنًا؛ في النهاية سيعاملهم النازيون بالأسلوب ذاته الذي عامل به الفرنسيون الجزائريين والفيتناميين، ولكن في العام 1945م، عقب هزيمة الجنس المتفوق، صُدمت شعوب الغرب بما حدث في الساحة الخلفية صدمة قوية، جعلتهم يدركون أن هناك دروسًا مهمة يجب تعلمها من الهولوكوست. وهذه مسألة سوف نعود إليها في نهاية هذا الكتاب.

سوف ننتقل الآن إلى عدد من دراسات الحالة التي سترينا كيف أن الإبادة الثقافية ضد المجموعات المسببة للخوف، يمكن أن تعبِّر عن نفسها بالدعم الشعبي للمجتمع المُسيطر. ستكون الحالات الأولى من السنين السابقة للهولوكوست، والحالات التالية من بعد تلك الحادثة، وفي أثناء هذه المعالجة سنضع النظرية التي أُعدَّت آنفًا قيد التنفيذ.